

## أيقونة شعبية تستعيد لها الشاشة في لحظة ترامب - بايدن

أبي هوفمان

نتفليكس ترصد نبض الشارع الأميركي بـ«محاكمة شيكاغو»



● هوفمان بعد الأبرز بين أولئك السبعة الذين جرت محاكمتهم بتهمة التسبب بالعنف والشغب، غير أنه كان الأكثر قدرة على الروسخ في وعي الأميركيين عبر الزمن.



● شبكة نتفليكس عبر طرحها لفيلمها الطويل «محاكمة شيكاغو» على وقع ما يمكن أن يحدث في الولايات المتحدة، تدخل على خط صناعة الوعي الشعبي، في زمن كورونا والبقاء في المنازل.



يحيى العربي  
كاتب سوري

ناكف الاحتلال الأميركي لفيتنام وتمنّع عن الالتحاق بالجنديّة مظلّمه مثل الملاكم الأكثر شهرة في العالم محمد علي كلاي، ومثله مثل الإعلام الأميركي الذي تسيطر عليه اللوبيات اليهودية والذي قال عنه قائد القوات الأميركية الأسبق الجنرال ويليام ويستمولاند "لقد هزمتنا ذلك الإعلام الصهيوني".

لم يكن أبي هوفمان مضاداً لأميركا لأنه يهودي، كما يمكن للبعض أن يحلّل، إلا أن إحساسه بضرورة الوقوف في وجه المؤسسة الحاكمة والتصدي لممارساتها بحق الأميركيين أنفسهم، كان هو الأمر الطبيعي لجيل الستينات من القرن العشرين، وأن تكون "أنتي ايسنابلسميت" والتي تعني المعادي للمؤسسة، كان هو الموضة الدارجة في تلك الحقبة، والذي تعيده لنا شبكة نتفليكس عبر طرحها لفيلمها الطويل "محاكمة شيكاغو" على وقع ما يمكن أن يحدث في الولايات المتحدة الأميركية بعد رفض الرئيس دونالد ترامب الاعتراف بنتائج الانتخابات الرئاسية التي أفضت حتى الآن إلى فوز خصمه الديمقراطي جو بايدن. ولكن الأمر لم ينته بعد، كما يقول ترامب.

هوفمان أحد أولئك السبعة الذين جرت محاكمتهم في فيلم "نتفليكس"، غير أنه كان الأبرز والأكثر قدرة على الخلود والروسخ في وعي الأميركيين عبر الزمن، لذلك تحول إلى أيقونة شعبية. ولد لأبوين يهوديين في ماساتشوستس الولاية التي صدرت الفكر العلماني المنفتح إلى بقاع أميركا، ومنها إلى العالم، وقد يكون ذلك بسبب وجود معهد "إم آي تي" الذي سيرتبط باسم الفيلسوف العبري ناعوم تشومسكي.

## مولد الشغب

إذا قيل عن هوفمان إنه تاجر اجتماعي أو ناشط أو ثوري، فإن كل تلك الصفات ليست كافية، بل هو محرّض اجتماعي أشعر السلطات بالخطر من خلال ثورته على الراديوية والسكون والانسحاق الاجتماعي. ولذلك كان "مولد الشغب" اللقب الذي رافقه طيلة حياته. وإن كان هناك من مولد لانتفاضة الستينات الشبابية والتي غيرت أميركا والعالم، فسيكون هذا الشاب أحد الشرارات التي أسهمت في ذلك.

بعيدا عن الادعاءات السلطوية بالشغب والعنف، فإن هوفمان كان بمنتهى السلمية ونبذ إراقة الدماء. كان يحطم أشياء قابلة للتطعيم، ولا تؤذي أحداً. نعم، ولكن بالمقابل كان يوقد جذوة تأخذ طريقها إلى عقول جيل كان المسؤول عن الاختراقات العلمية والمعرفية الجبارة في نهاية القرن العشرين ومطالع القرن الحالي، وعلى رأسها "النكاه الاصطناعي".

هوفمان الذي يظهره الفيلم، فوضوياً سليل اللسان، في دور من أداء الممثل ساشا بارون كوهين، يمكن أن تستشف من روحه روح العدالة والإنصاف، فقد وصلت به الأمور إلى أن يقول "إن الإله لا يمكن أن يكون موجوداً، لأنه لو كان موجوداً بالفعل، لما كانت هناك كل تلك المعاناة في عالمنا". وعندما كتب تلك العبارة وصفه معلمه بـ"الشيوعي الاصطناعي".

اللعين، وكانت تهمة الشيوعية كفيلاً بتسقيق المرء من المجتمع الأميركي بشكل نهائي. غير أن هوفمان هجم على أستاذه وأوسعه ضرباً، ما تسبب في طرده من المدرسة آنذاك، وهي اللحظة التي يعتبر هوفمان نفسه فيها قد بدأ عمراً جديداً بعد تخرجه من المؤسسة التعليمية الأميركية الرسمية.

كأحد الشباب القلق بهموم تتجاوز ما يشغل الإنسان العادي دخل هوفمان عالم "علم النفس" وحصل على الماجستير من أهم جامعة أميركية بهذا الاختصاص "جامعة بيركلي" في كاليفورنيا. شخصيته بنيت على السخرية من الاستعباد الذي تولده المادة، وعلى الحقد على المال الذي قهر الإنسان. انخرط وتعمق في ما تفعله الرسالة الإعلامية، ولم يخطر بباله أن ما سيفعله في ذلك العالم سيصل إلى سكان الكرة الأرضية بأسرها. كان ذلك الانخراط الخطوة الأولى باتجاه عالم السياسة الذي لم يكن يفكر بولوجه أساساً. إلا أن ما كان يفعله تحول إلى مدخل حاسم في هذا العالم بأسلوب يختلف عن مقاربة المتخصصين في السياسة وممارسيها. إذ ما معنى أن تقف أمام قاض في جلسة محاكمة وتحاكمه أنت لا هو، وتحاكم معه المظلومة القضائية والسياسية من خلال التهمك عليه بأسلوب لا يستطيع مخلوق أن يقول إنك من خلاله تهين المحكمة أو تحط من مقامها أو تتال من هيبة القضاء ومضمونه؟

## الزمن يكرز نفسه

تشاء صدف محاكمته في إحدى القضايا أن يكون أمام قاض يشترك معه في الكنية "هوفمان"، فكان يدخل أحيانا قاعة المحكمة مرتدياً رداء القاضي، وحين يقدّم اسمه، فيظنه الحاضرون القاضي، ولكنها في صلب تعرية مظلومة سياسية استبدادية متحجرة ومتهاككة. تمادى



● يهودية هوفمان ليست السبب في مواقفه، كما يمكن للبعض أن يحلّل، إلا أن دافعه كان الإحساس بضرورة التصدي للمؤسسات ووقف ممارساتها بحق الأميركيين أنفسهم.

هوفمان في جراته إلى حد أنه كان يقول للقاضي "أنت عار حتى أمام الوثنيين، وكان من الممكن أن تخدم هتلر على نحو أفضل. فكرت عن العدالة هي الفحش الوحيد في هذه القاعة".

كان ذلك العصر عصر مارتن لوتر كينغ، وكان بدء خلاص أميركا من بذرة الحرب الأهلية التي يتخوف كثيرون من عودتها اليوم في ظل الانقسام السياسي والشعبي الكبير بين الجمهوريين والديمقراطيين. وكان ذلك الزمن لحظة بدء انسجام مجتمعي في بلد يحكمه القانون والكل تحت غطاءه، وهو أيضاً توقفت بدء ثورات الطلاب في أنحاء العالم، وكان عهداً أسقط فيه شباب فرنسا ديغول محرّر الجمهورية من الاحتلال النازي.

يختار مؤلف الفيلم ومخرجه أرون سوركين العودة من جديد إلى قاعات المحاكم وهو يدرك أن الضرورة اليوم تقتضي ذلك، بعد أن خاض في تلك العوالم مطلع تسعينات القرن الماضي في فيلم "قليل من الرجال الجيدين" مع جاك نيكلسون وتوم كروز. سوركين هو صاحب فيلم "الشبكة الاجتماعية" الذي حصد ثلاث جوائز أوسكار بينها جائزة أفضل سيناريو، و"ستيف جوبز" و"موني بول".

لكننا اليوم في زمن كورونا، زمن العزلة والبقاء في البيوت، وهو التوقيت الملائم لإيصال الفكرة إلى حيث يجب أن تصل، أي إلى جميع الناس، لا مرتادي صالات السينما وحدهم.

سبعة شباب تقرّر الدولة العميقة في الولايات المتحدة توجيه الاتهام إليهم بزعزعة السلم الأهلي والتسبب بالعنف والتخريب والإرهاب. ويستند النائب العام حينها إلى حيلة قانونية كانت تنص على عدم تجاوز حدود الولايات، داخل أميركا ذاتها، لتكون مقامحا للنيابة للإسكاف بذلك الطرائد.

لا شيء يمكنه أن يمنع مواطناً أميركياً من تجاوز حدود أي ولاية ضمن النظام الفيدرالي، إلا في حالة واحدة، إذا كان ينوي ارتكاب أعمال إرهابية. وهذا كان السهم الذي سدّته أميركا نحو شبابها. بدأت تحاكمهم على نواياهم، محاولة إثبات ذلك بفكرة الأدلة وزرع شهود الزور. والضحايا الأمثل هم أولئك السبعة الذين كان هوفمان في مقدمتهم.

وقد شهدت السنة الحالية، احتجاجات عنيفة في أميركا، قلبت الأمور رأساً على عقب. السود والمعارضون وأصحاب الشعارات المطالبة، وكانها تعيدنا، حتى قبل إثارة الانتخابات الرئاسية، إلى زمن الفيلم ذاته وأحداثه المثيرة.

## شخصيات مثيرة

لم تكن شخصية هوفمان وحدها الشخصية اللافتة في الفيلم، كما كانت في الحياة، بل إن جميع الأبطال السبعة

الذين واجهوا الاتهام الكبير منهم، كانوا من أنماط مثيرة، حتى محاميتهم ويليام كونستلر الذي كان في حالة صدمة دائمة من سلوك المحكمة والقاضي الذي يتصرف وكأنه في دولة ذات نظام شمولي استبدادي وليس في أميركا، فيعاقب المتهمين ويفرض على أحدهم وهو النمر الأسود بوبي سيل، الذي كان الوحيد الأسمر البشرية، بأن يبقى صامتا دون أن يتبع له الدفاع عن نفسه. مشهد لا يحدث كل مرة في عصرنا، وفي بلد مثل أميركا بلاد الحرية والقانون. أما القاضي يوليوس هوفمان فبذت شخصيته كوميدية إلى جانب قسوتها وانحرافها عن العدالة، كان متطرفاً عبداً للسلطة منفذاً لإرادتها، ولم يكن يستحق سوى المزيد من الإزدراء من هوفمان الذي لم يوفر لحظة ليوجّه إليه تلك الضربات الساخرة.

تفاصيل الفيلم مصنوعة بعناية لتخاطب مشاهد هذا الزمن، وليس للعناية فقط بتوثيق قصة حقيقية. وكثيراً ما تشعر بذلك حين تستمع إلى جدال بين هوفمان وتوم هايدن، وهما القائدان الحقيقيان للشباب آنذاك، لكن لكل منهما طريقته وفلسفته في التمرّد. سيقول هايدن غاضباً موجهاً كلامه لهوفمان "مع الأسف التاريخ سيتذكرك أنت كرمز للتمرّد، ولن يذكرني أحد".

تفسير ذلك ليس معقداً، فطريق الاعتدال والرمادية التي اختارها هايدن لا تحفر في ذاكرة الناس، بينما تطرف هوفمان وأراه الحادة تجعله خالداً في الذاكرة الشعبية. صحيح أن هايدن قال في شيكاغو محرّضاً الشباب "إذا كان الدم سيتردّد، فليتردّد في جميع أرجاء المدينة"، إلا أنه لم يتذكر حتى أنه فعل ذلك، وحين حوكم على ما قال أنكر أنه يقصد العنف العام، وإنما دمه هو، أسوة بدم صديق له ضربه شرطي أثناء المظاهرة.

أقترح هوفمان احتقار القاضي والمحكمة وعدم الوقوف كما جرت العادة، لتقديم الاحترام من قبل المتهمين والحضور، فالزمن الجميع إلا هايدن الذي وقف بينما بقي الجميع جالسين، تلك

الحظة لم يغفرها له الأميركيون، حتى أن خادمة بيت أبرز الشهود في المحاكمة وزير العدل الأسبق رامزي كلارك عبرت هايدمان بموقفه ذاك معبرة عن رفضها له.

## اسرق هذا الكتاب

تسبب هوفمان طيلة حياته بمشاكل تبدأ ولا تنتهي، وبعد تأسيسه حزب الشباب الدولي "بييرز" وحركة "قوة الزهور" أعلن الحرب الثقافية ضد الجميع، وبالأخص النظام السلطوي الأبوي البطريركي الذي تحكم بالجميع أيضاً، كان هوفمان مثقفاً على عكس الصورة التي يريد أن يراه الناس بها، بل كان مسلحاً بثقافة مفكر أكثر مما يحتاجه ناشط اجتماعي شبابي. وكان يستحضر أستاذه الفيلسوف هيربرت ماركوزه وكتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" للتخليص للتمرّد الذي كان يبشر به.

وفي أحد مشاهد الفيلم يسأل المدعي العام هوفمان سؤالاً جوهرياً، إجابته ستحسم كل شيء: "هل أنت تحقّر حكومتكم أم لا؟". حينها يجب هوفمان بالقول "أنا أحترم المؤسسات الديمقراطية الموجودة في البلد، ولكنني لا أحقّر شيئاً أو أحداً أكثر من هذه الحكومة".

قبل محاكمته قاد رفاقه صيف 1967 للاحتجاج أمام معرض بورصة نيويورك، والتي رزما من الدولارات في

وجوه رجال الأعمال خالقاً فوضي في الأجواء، بين مستنكر ولاهت خلف جمع الأوراق النقدية التي خطتها هوفمان بدولارات مزيفة، والمسرحية كانت مبنية على مبلغ لا يتجاوز 300 دولار وحسب، لكنه تمكن من الاحتجاج في قلب العالم المالي لأميركا وزعزعة المعرض وتنظيمه. وكان يتباهى بأنه بهذا المبلغ التافه تمكن من جعل المشرفين على بورصة نيويورك يخسرون أكثر من 20 ألف دولار لإجراءات الأمن بعد قيامه بفعلة تلك.



هوفمان، وعلى عكس الصورة التي أراد أن يراه الناس بها، كان مسلحاً بثقافة مفكر أكثر مما يحتاجه ناشط اجتماعي شبابي. وكان يستحضر أستاذه الفيلسوف هيربرت ماركوزه وكتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" للتخليص للتمرّد الذي كان يبشر به

كتابه البديع "اسرق هذا الكتاب" واجه مشكلات كبيرة بسبب عنوانه، فهو دعوة لخرق القانون، ولذلك تمّ منع توزيعه في الولايات المتحدة وكندا والعديد من دول العالم، صفّمه هوفمان ليكون دليلاً للشباب بشرح لهم فيه تصادم الثقافات ويكشف أساليبه حول حربه ضد الحكومة، ويعلم فيه القراءة تقنيات الخاصة للحصول على ما يلزمهم من أجل مواصلة الاحتجاج.

تم بيع أكثر من ربع مليون نسخة من الكتاب في أول ستة أشهر فقط، بعد أن طبعه هوفمان بنفسه، لأن أكثر من 30 ناشراً لم يجروؤا على تبنيه، ولم تقبل أي وسيلة إعلان الترويج له. ولكن هوفمان بروحه الساخرة كان يقول "يا له من أمر مرح عندما تحاول الإطاحة بالحكومة، فتنتهي بقائمة أكثر الكتب مبيعاً".

عاش هوفمان حياته كلها نازراً نفسه للتمرّد والرفض وتقديم الجسد على أنه معرض للأفكار، من خلال السترات الجلدية والدرجات النارية والشعر المرسل، إلا أنه كان أحد أبرز منظري اللاعنف في أميركا، ومات بطريقة غامضة في العام 1989. لكنه يعود اليوم، كما نرى ويرى الجميع.

